الله عند الذين أنكروه

الذين أنكروا الله كانت لهم فى كل زمان حجة .

قالوا إن الدين وهم ، وإن الله فكرة اخترعها الإنسان ليلتمس العزاء فى الدنيا ، وليعلل نفسه بأحلام الخلود بعد الموت وبالجنة وبالحور وبالقصور . . ونسوا أن هناك أديانًا تبشر بالفناء ولا تقول بجنة أو نار . . ولا تعتقد فى روح . . وهى أكثر انتشارًا وأكثر اتباعاً من الأديان السماوية مثل الديانة البوذية .

وقالوا بأن الدين أفيون يوزعه الأغنياء على الفقراء ، وصكوك بجنة وهمية بعد الموت فى مقابل سرقتهم لحياة الناس . . وهو بذلك سلاح لطبقة على طبقة . . ونسوا أن فكرة الله بدأت فى المجتمع الهمجى البدائى والمشاعى قبل أن يظهر الإقطاع والرأسمالية بما فيهما من صراعات وطبقات .

ولقد خرجت الرأسمالية مهزومة بعد التحول الاجتماعى وانتصار الفكر المادى ، وظل الدين ثابتًا فى معاقله يؤدى دوره برغم المجتمع الجديد الذى بلا طبقات .

واعتمد الفكر المادى فى رفضه للدين على أنه غيبيات ، وأن العقل العلمى لا يصح أن يؤمن بغيبيات . . ومع ذلك تورط الفكر المادى

ذاته فى إقامة فلسفته على الغيبيات والفروض . . فقال بقدم المادة وأنها أزلية لم يخلقها خالق ، وأنها موجودة منذ اللانهاية من الزمان ، وأنها تطورت فى سلسلة من المراحل . . فى البدء ، كانت المادة ثم تطورت إلى الحياة ثم تطورت الحياة إلى ذروتها « الإنسان العاقل » وحدث كل ذلك تلقائيًا بالقوانين الجدلية الباطنة فى المادة دونما عوامل خارجية من وراء المادة .

فبدءوا من افتراض خاطئ وهو أزلية المادة اعتبارًا من أن تسلسل الزمن فى الماضى إلى آجال سحيقة يمكن أن يوصلنا إلى الأزل أو اللانهاية . . وهو خطأ . . فالزمن كمية محدودة ومهما انضافت كميات محدودة إلى كميات محدودة فالنتيجة لا تكون إلا كمية محدودة . ولا نصل مهما استرسلنا فى الجمع والإضافة إلى اللانهاية . . وبالتالى إلى الأزل . . فالمادة ليست قديمة ولا أزلية .

والكلام على أنه فى مبدأ الكون كانت المادة ولا شىء غير المادة وأن المادة سابقة فى الظهور إطلاقاً . . هو فرض آخر وكلام عن غيب فلم يكن أحد من الفلاسفة الماديين موجوداً فى تلك اللحظة التى هى مبدأ الكون . . وإنما هى شطحة غيبية من تلك الشطحات التى يعيبونها علينا .

ثم الكلام عن تطور المادة تلقائيًا بالقوانين الجدلية الباطنة فيها هو تعسف آخر ، فلم يحاول واحد منهم أن يسأل نفسه السؤال المنطقى والبسيط . . من الذى وضع تلك القوانين فى المادة . . وكيف يوجد نظام بلا منظم . . وكيف تولد سيمفونية بدون مؤلف يضع لها النوتة ويقود لها الأوركسترا . . ونسوا أن إسقاطهم لقانون السببية من حلقة الحوادث

وتصورهم لخلق بلا خالق هو إسقاط للعلم كله وخروج على الفكر العلمى فى بداهاته الأولى .

أما كلامهم عن المادة باعتبارها الحقيقة الوحيدة الجوهرية وإغفالهم الذات المدركة وأصالتها واعتبارهم أنها نتاج ثانوى لتطور المادة فهو افتراض آخر وتعسف غير علمى ومحاولة مخلة لتبسيط كل شىء فى كلمة واحدة هى المادة .

هو إذن بنيان واه من الفروض والاحتمالات والشطح والتخمين والتبسيط الساذج لحقائق هى بطبيعتها مركبة ومتداخلة ومعقدة ومؤلفة من مئات الأسباب والعوامل . . وبالرغم من أن الفكر المادى يضع بافطة العلم شعاراً لكل ما يقول إلا أنه لا يراعى بداهات هذا العلم وأولياته .

ونسمع من يقول إن الدين هو حسن السير والسلوك ومكارم الاخلاق . وأن هذه الأشياء يهتدى إليها الإنسان الآن بعقله وبالوازع الاجتماعى وبدون حاجة إلى دين . . ويخطئ صاحب هذه الدعوى فهمه للدين . . فالدين ليس هو الأخلاق . . وإنما هو مرتبة أعلى من الأخلاق .

فإذا كانت الأخلاق وظيفتها تحقيق الانتماء إلى الجماعة الإنسانية على أحسن صورة .

فالدين وظيفة أشمل . . وهى تحقيق الانتماء إلى الكون والوجود والله . . على أفضل وجه .

الإنسان عن طريق الدين يكتشف انتسابه الحقيقى والأصل باعتباره صادراً عن الله وإلى الله يعود . . فهو مخلوق لله ومسؤول أمامه . . وكل ما يملك فمن الله وبفضله . . وواجبه لا يكون إلا نحو الله وعمله

لا يقصد به إلا وجه الله .

أما الإنسان الحسن السير والسلوك بالمعنى الاجتماعى والأخلاقى فإنه لا يشعر إلا بانتسابه المحدود إلى عشيرته الإنسانية . . ودستوره هو مجموعة لوائح الأخلاق التى تجعل هذه العلاقة على أفضل ما تكون . . ولكنها لا تتجاوز به تلك العشيرة المحدودة من الأهل والأصحاب لتخرج به إلى ساحة الوجود ككل .

ونأتى إلى فرويد فنجد أنه ينطلق فى تعليل كل شىء بالحافز الجنسى ليفسر لنا الدين بأنه نوع من التسامى بالغريزة الجنسية . . فحب الطفل الجنسى لأمه وغيرته مع أبيه وكراهيته الدفينة له (عقدة أوديب) تتخذ شكلا ظاهريًا من التفكير اللاشعورى عن هذه الكراهية بحب مبالغ فيه للأب ثم عبادة للأب ثم عمل تمثال للأب وعبادته (الأصنام) . . ثم فى النهاية الاتجاه بالعاطفة والعبادة نحو أب سماوى مجرد .

وينسى فرويد أن فكرة الله بدأت فى المجتمعات البدائية الهمجية المشاعية وقبل ظهور عوامل الكبح والكبت والتحريم الجنسى الذى يجعل الأم محرمة على الابن والأب محرماً على البنت ، ويذكر لنا التاريخ حتى فى العصور المتقدمة كيف كان الفراعنة يتزوجون بناتهم وكيف كانوا يتزوجون أخواتهم . . فلا معنى لعقدة أوديب فى مثل تلك المجتمعات .

وحتى لو صدقنا فرويد ، فإنه ينبغى بناء على كلامه أن يعبد الرجل أباً سماوياً والمرأة أمًا سماوية (بناء على عقدة الكترا عند البنت) وهو تقسيم غير وارد .

* * *

ونجىء إلى عقدة العقد فى إنكار المنكرين وهى قضية الشر وهى عندهم حجة الحجج وعمدة البراهين .

يقولون لك كيف تكون الدنيا من صنع خالق كامل حكيم عليم رحيم كريم . . وهى بهذا الحال من الشر والنقص ملطخة بالدم ناباً ومخلباً .

والكلام عن الشر قديم قدم التاريخ . . وهناك أكثر من رد :

فأولا : لا يمكن الحكم على رواية بحضور فصل واحد من فصولها . . والابن يبكى حينما يأخذه أبوه ليجرى له جراحة ويعتبر ما يفعله به غاية الشر . . فإذا امتد به العمر أياماً . . رأى أن هذا الشر العارض كان وراءه خير باق يستحق التحمل من أجله . . وبالمثل حياتنا لم تنته بعد وهى بالموت لن يسدل عليها الستار . .وإنما ستكون هناك فصول أخرى . . ولا يمكن الحكم من هذا الفصل العابر الذى نعيشه على مغزى الرواية كلها .

ثانياً : من الواضح أن بناء شخصية الإنسان وخلقه وصلابته وعزمه مرتبط أوثق الارتباط بما يعانى من مشقات . . ولولا المشقة لكان الأمر كما يقول المتنبى :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجـود يفقر والإقـدام قتـال

فلا معنى للصفح بدون الإساءة ولا للرحمة بدون الألم

ولا للعدل بدون الظلم .

ومن البلاء والصبر عليه . . ومن الألم .

واحتماله تنمو أفضل ما فى الإنسان من صفات .

وعندنا المثل القريب فى لعبة مثل الشطرنج فى إمكان اللاعب أن يسقط ملك الشطرنج بخبطة واحدة من يده متغاضيًا عن قواعد اللعب ليتجنب المشقة . . ولكن أين تكون لذة النصر . . إن اللعبة الجميلة سوف تتحول إلى شيء مضحك سخيف .

ثالثاً : ما يبدو لنا فى النظرة الجزئية عيباً ونقصاً نراه فى النظرة الشاملة وفى المنظور التاريخى نعمة وخيرا . . كما نقترب من لوحة ومن جزء صغير فيها فنلاحظ ما يشبه لطعة قذرة فإذا ابتعدنا رأينا تلك اللطعة مساحة من الظلال تؤدى وظيفة ضرورية فى الجمال الكلى للصورة . . كذلك تبدو الزلازل والبراكين والكوارث الطبيعية فى إطارها الشامل ، ولها وظيفة مفيدة نافعة فى إعادة التوازن بين باطن الأرض الفوار الملتهب المضطرب وبين قشرتها الصلبة الساكنة .

وتعمل الزلازل إلى إعادة الجبال إلى أماكنها بعد الانزلاق الذى تنزلقه كل عدد من السنين . . والجبال كما نعلم هى الثقالات والأوتاد التى تثبت القشرة الأرضية فى أماكنها ولولاها لانفجرت وطارت فى الفضاء بفعل باطن الأرض الذى يغلى كمرجل ويتمدد دافعاً القشرة فى كل اتجاه بضغط هائل .

إنها كوارث تهلك آلافاً فى سبيل بقاء الحياة والإنسانية وامتداد عمر الدنيا إلى أجلها المكتوب فى الزمان .

والإنسان يموت على أى حال بالزلزال أو بغيره .

رابعاً : إن الشر كان ضريبة الحرية التى منحها الله للإنسان فلا معنى للحرية الممنوحة للإنسان دون أن تكون له حرية الخطأ كما تكون

له حرية الصواب .

ولهذا رافق الخطأ الحرية فى مسيرتها وكان ضريبتها . . وأصبح تاريخ الإنسان هو تاريخ المحاولة والخطأ .

ونتج من الخطأ الشر .

ولم يكن هناك إلا بديل واحد هو أن يولد الإنسان مجبراً على اختيار واحد هو الخير . . ومعنى ذلك أن يخسر حريته وهو أسوأ .

خامساً : أن الشر والخير هما وجهان لعملة واحدة . فالفيضان هو خير من وجه وشر من وجه آخر ، والحروب هى دمار من وجه وهى حياة من وجه . فالحروب هى التناقضات الهائلة التى أدت إلى التراكيب الإنسانية التى وحدت البشرية فى جماعات كبيرة ووصلت القارات ببعضها . . فهى التى كتلت الناس فى أسر ثم عشائر ثم قبائل ثم قوميات ، وفى النهاية ألقت بهم على مائدة عالمية واحدة فى مجلس الأمن يجلس عليها الكل . . ومن الإنفاق الحربى الباذخ والبحوث المركزة فى أوقات الحرب خرج للناس البنسلين ونقل الدم ونقل الأعضاء والطاقة الذرية والصواريخ والنفاثات والغواصات وصناعة الصلب والبارود وأجهزة الرادار .

سادساً : أن الشر لا وجود له بالأصالة بل هو مجرد بطلان الخير وهو بطلان رافق محدودية الإنسان ومحدودية الكائن الحى . . وما كان يمكن أن يخلق الكائن المحدود بلا حدود وبلا عيوب .

والبديل الوحيد . . أن يخلق الإنسان كاملا بلا نقص . . أى يخلق إلها من البداية وهى استحالة . . أن تتعدد الآلهة . . وأى حكمة فى

تعددها ؟ . . ما دام الكامل الواحد فى ذاته يغنى عن غيره . . وكيف يكون الإله الكامل مخلوقاً . . هى استحالة منطقية أخرى أن يكون كاملا ومعتمدًا فى وجوده على غيره .

وطلبنا من الله أن يحقق لنا هذه المستحيلات المنطقية أشبه بطلبنا منه أن يجعل مجموع الواحد والثلاثة صفرًا بدلا من أربعة . . ومعنى ذلك أننا نتصور الله صانع هراء . . وكل هذا من أجل أن يجنبنا المشقة ويهيئ لنا المتعة .

ومتى كانت المتعة قيمة تحسب فى عداد القيم الرفيعة .

ولنا أن نسأل بعد ذلك هؤلاء الذين يريدونها جنة . . هل يستحقون أن تكون لهم جنة . . وماذا فعلوا من أجل ذلك ؟

والكلام فى قضية الشر كثير .

والقضية أزلية .

وكان لا بد من الشر لتكون للفضيلة البشرية وظيفة تؤديها فى مقاومته .

ولكن بعض المنكرين تعجلوا الحكم ، وقفزوا من ظاهرة الشر إلى نتيجة متعجلة باتهام الخالق . . وتصوروا للدنيا خالقاً محدود القدرة قليل الحيلة مقيدا بالظروف والملابسات التى يخلقها . . إلها لا يختلف كثيراً عن شيخ قبيلة محدود المواهب ، ومن هؤلاء جون ستيوارت ميل الإنجليزى .

وآخرون قالوا بأن الله ينبثق من المادة كما انبثقت الحياة نباتاً وحيواناً وإنساناًعلى مراحل كذلك تأتى مرحلة ينبثق فيها الكائن الكامل

الذى هو الله ليكون ذروة التطور وأكمل طبعة من طبعاته .

ولم يقل لنا هؤلاء ماذا ستكون وظيفة هذا الكائن الكامل الذى يأتى بعد أوانه وبعد أن تنتهى الحاجة إليه . . هذا إذا صدقنا بقضية الانبثاق وهى استحالة منطقية بأن يخرج اللامحدود من المحدود .

أما الفلاسفة الوضعيون أمثال أوجست كونت فآثروا الانصراف عن القضية كلها واطراحها وإهمالها انطلاقاً من عجز العقل عن إدراك الحقائق النهائية ، ويأسا من بلوغ ما وراء الطبيعة ، أو كشف كنه الغيب أو الله . . ونصحوا بالاكتفاء بما يعطيه العلم من تقدم ووسائل تكنولوجية لإسعاد الإنسان ، وحسب الإنسان أن يعكف على هذا الجانب الممكن يتقن علومه واختراعاته ويطورها لصالح حياته ، ولا يضيع الوقت فى تأمل الله وأسراره . . . ناسين بذلك أن ما لا يدرك بالعقل والمنطق الجدلى فهناك وسائل أخرى لإدراكه . . وأن الإنسان لم يوهب المنطق وحده ، ولكنه وهب البصيرة الكاشفة والوجدان الملهم .

والصوفى الذى تتفتح بصيرته فيدرك من الحقيقة الإلهية ما يجعله يغيب عن عالم الظواهر ويغيب عن نفسه ويستغنى بقربه من الله عن كل شىء . . مثل هذا الإدراك الرفيع من ذلك الصوفى لا يمكن إنكاره بإشاحة اليد لمجرد أن الملحد عاطل عنه ، فليس من حق الأصم أن ينكر الأصوات ، ولا الأعمى أن ينكر نور الشمس لمجرد أنه لا يراه .

وفى هذا العصر الذى اكتشفنا فيه من صنوف الإشعاع والأمواج مما تضج به السماء حولنا مما كنا لا ندرك أو نحس له أثراً . . فى مثل هذا العصر يصبح إنكار الغيب والمجهول سذاجة عقلية .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما اكتشفنا ، فى علم النفس من عجائب اتصال الأفكار والجلاء البصرى واستشعار الخطر قبل وقوعه وعجائب ما يحدث من اتصال فكر المنوم بالوسيط فى التنويم المغنطيسى . . ومن استدلال الطيور المهاجرة على طريقها بدون حواس معروفة .

كل هذا كشف لنا من أسرار العقل ومجهولاته ما أطل بنا على ظلمة الغيب والأسرار الغيبية فأضاءها وأحياها لتعود موضوعاً للإيمان والبحث من جديد .